

لا للخاصة ولا للكافة ...

بقلم عبدالله عبد الجبار

لمن يكتب الأديب؟ أيكتب للعامة أم للخاصة؟ هذا هو السؤال الذي كان موضوعاً لتلك المناظرة التي استغرقت ثلاث ساعات بين عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين وبين الاستاذ رثيف الخوري .

لقد عشت في دوامة وأنا أصبح للتناظرين القديرين ، دوامة عنيفة تشبه احساس الصاعد الى جبل الأرز الخالد بسرعة تسعين كيلومتراً في الساعة بين مشاهد الجنات الحاملة والربى الغناء المخوفة بالطرق الضيقة والفجاج المتلوية ومناظر الماهوى السحيقة التي تفرغ القلب وتجدد الاحساس .

لقد تصورت المتناقشين يتباريان في تلك المسالك الخطرة والدروب الوعرة ، ويتنافسان أيهما يأخذ على مناظره الطريق ، طريق الجادة ويترك خصمه على شفا الهاوية ! لقد كانا بارعين حقاً فلم يهو أحدهما ، ولكن ما ان وصلا الى غابة الارز بعد طول الأين واللاهات حتى اشار كل منهما الى شجرة واحدة قائلاً : هذه هي شجرة لامرئين ! اذن فكل ما شجر بينها من خلاف ، كان الى حد كبير مصطنعاً .

وأنا الآن أمسك بالقلم محاولاً أن انفض عن رأسي عقابيل تلك الدوامة بعد ان رأيت المتناقشين الفاضلين متفقين كالمختلفين ومختلفين كالمثقفين .

والواقع ان الأديب لا يكتب للعامة ولا يكتب للخاصة ، وانما يكتب أولاً وقبل كل شيء لأولئك الذين يتجاوب معهم في الاحساس والشعور ، ويقدر ما يكون تشبع هؤلاء بالروح الفنية ونزوعهم للميول الادبية يكون حرص الأديب على ان يقرأوا أديبه ويستوعبوا فنه ويتصلوا بتناجه .

وإذا كان الأديب واقعيماً هادفاً فإنه يسره ان يقرأ أديبه الطبقات الكادحة والطبقات المتوسطة ، والعمال والزراع وصغار الموظفين ، لأنه حينئذ سيجد نفسه تنداح في نفوسهم وافكاره وعواطفه تتغلغل في افكارهم وعواطفهم ، وكلما اتسعت هذه الفئات بسمه الادب والفهم ازداد حرص الأديب الهادف على مخاطبتها وتجليه شعورها . ولا شيء يذكي قريحة الأديب كالشعور بالتجاوب الصادق بينه وبين من يكتب لهم ويصور حياتهم ، افراحهم واحزانهم ، ملاحيمهم ومآسيتهم ، ولا شيء يضايق الأديب مثل احساسه بغيباء الكثرة الكاثرة من الدهماء . اولئك الذين لا يفهمون كلامه أو لا يفهمونه على وجهه ، اولئك الذين لا يترجمون الاشارة والرمز وقد اضطرت اليها - الى تعبير واضح صريح يبرز كيانهم ويؤثر في اعمالهم ابلغ تأثير .

وإذا كان الأديب غزلياً مترفاً ، فان شعوره بالغبطة والابتهاج لا يتم الا اذا قرأ شعره او قصصه اولئك الاغنياء المنعمون من ذوي الذوق الفني المترف الذين يتفقون معه في المنزوع والمثرب والاحساس بحياة الصالونات ، وحياة الابر والقصف والمجون .

وإذا أوتي هؤلاء حظاً من الثقافة والذوق الادبي فان حرص الشاعر

الغزلي على ان يقرأوا أديبه يتضاعف ، لانهم اقدر الناس على ادراك براعته في رسم تلك الحياة الفنية المترفة وتصوير اجوائها وملابساتها وملامستها الناعمة وطبوعها الفاتحة وبراعها الحريية .

ومهما يكن من شيء فان الباعث الاساسي الذي يدفع الأديب للانتاج هو هذه المشاركة العاطفية والوجدانية ، هو ذلك الاحساس المشترك سواء أكان احساساً بالفنى او بالفقر أو كان احساساً بالكدرح او بحياة الفراغ والجدة وسواء كان احساساً بالذل والعبودية والاضطهاد او احساساً بالعلم والتسايط والاستملاء . وكلما احبط ذلك الاحساس بالاطار الادبي من جانب القراء المستهلكين كانوا اكثر ايثاراً من جانب المؤلفين المنتجين ! وهذا التجاوب اذن هو الذي يمدد الصلة الروحية بين الأديب والقراء .

بقيت هناك زاوية هامة لم يتعرض لها الاستاذ رثيف الخوري ولا الدكتور طه حسين وهي ان الأديب يكتب لاعدائه ، كما يكتب لاصدقائه ايأ كانت لون هذه العداوة، شخصية او ادبية ، سياسية او دينية ، حزبية او طائفية ، ولو سيرنا نفسية جرير وهو يهجو الفرزدق أو الفرزدق وهو يهجو جريراً ، لألفينا كلا منها حريصاً اشد الحرص على ان يصل هجاؤه لقرنه وان يهتر له قلبه، وان يزلزل كيانه المنعوي زلزالاً عنيفاً مدمراً ... ويخيل الي ان احدهما في لحظة من لحظات الخنق الاسود لو خير بين ان يقرأ الناس جميعاً شعره ما عدا خصمه ، وبين ان يقرأه خصمه وحده دون بقية الناس لاختار الحالة الثانية !

وحينما تأزمت الامور بين المتني وكافور ، وأذنت القطيعة بينهما بالشر المستطير اخذ المتني بعد العدة للرحيل وهو مطوي الضلوع على حنق مدمر ، حتى اذا كان يوم عرفة من سنة ٣٥٠ هـ . وقبل ان يغادر مصر بيوم واحد اصدر منشوراً سياسياً

لمن يكتب الأديب؟

تعليقات حول مناظرة الدكتور طه حسين ورثيف خوري

ضد الامير كافور ، وهذا المنشور يتمثل في دالته المشهورة التي مطلعها :

عيد باية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد

واني لأصور المتني وهو يفر من وجه كافور كيف كان يتنازعه عاملان : عامل الخوف من ان يقع في قبضة الاسود المحصي - على حد تعبيره - وعامل التنفسي والانتقام حين يتمثل كافوراً وقد وقعت في يده تلك القصيدة ، كيف كان يستشيط غضباً ويتميز غيظاً وتتدل مشافره أسي وحنقاً فيشعر بالسعادة الفسامرة والارتياح النفسي العميق : ليقراً كافور - اولاً وقبل كل شيء تلك القصيدة ولا عليه بعد ذلك أيقراها الناس أم لا يقرأونها ! هذا هو شعوره في ذلك الموقف !

ولو صح ما قيل من ان الورقة التي تضمنت تلك القصيدة حين وصلت ليد كافور أمر باحراقها ولم يقف على ما فيها ، وتصورنا ان المتني علم بهذا التصرف ، لعلنا اية صاعقة نزلت على قلب المتني وهدت كيانه !

فالاديب اذن يكتب لعدوه كما يكتب لصديقه ، وماذا نسعي العدو في هذين المثليين - وهو فرد - أنسميه خاصة أم نسويه عامة نست أدري !! وما اكثر القصص الواقعية الحديثة والقصائد المتحررة الواعية التي تحفل بها مجلة حرة كمجلة «الآداب» ، التي تصور مآسي الشعوب وحياة البؤس والشقاء ، صدقوني اذا قلت لكم ان منشيء تلك القصائد والقصص لا يسعدكم شيء قدر ما يسعدكم ان يقرأها الطغاة

والمتبدون والمستعمرون واستغلون ، لانها السلاح الذي ينفذون به في صميمهم ، ولأن هؤلاء الأدباء يريدون - عن وعي وعن غير وعي - أن يمكروا صفو هذه الطبقة الجشعة المستبدة ، ويحيلوا جناهم النفسية ججيا ليا وعذابا مقبها .

فالأديب الواقعي أذن لا يكتب للكافة وحدها ولا يغترف من واقع الجماهير ليرد اليهم وحسب وانما يكتب لهم ، ويكتب لاعدائهم ، وربما كان حرصه على تنقيص حياة هؤلاء الاعداء ووخز ضميرهم واثارة احساسهم بفقدانهم الشعور الانساني ، لا يقل عن حرصه على رفع مستوى الجماهير وتحريكهم لرد الحقوق السليبة وتبيل الحرية المفقودة ... ولا يكون ذلك الا بمخاطبتهم والكتابة اليهم ... وثم سبب آخر يدعو لتوجيه الخطاب لهذه الفئات وهو توهينها واضعاف روحها المعنوية وتحطيم تلك الاصنام البشرية التي تعبد من دون الله .

والملاحظ ان شكسبير وموليير من المؤلفين الذين تمثل رواياتهم باستمرار في بلدان الديوقراطيات الشعبية والاتحاد السوفياتي ... كما تمثل في غيرها من البلاد . ومعنى هذا ان شكسبير وموليير يخاطبان اصحاب اليمين واصحاب الشمال على السواء ، فيها اذن لم يكتبنا لفته معينة من الناس لخاصة ولا عامة وانما كتبنا للناس جميعا ، والسفر في هذا انها اكتشفا اكسير الخلود والبقاء وهو الروح الانساني الخالد ... مع توافر العناصر الفنية الاخرى بطبيعة الحال ...

هذه صورة مقتضبة لواقع الادياب النفسي حين يكتبون ادهمهم النفسي ويديمونه على الناس ، وهي الصورة التي يوحى بها عنوان المناظرة « من يكتب الادياب للخاصة أم للكافة ؟ » ولم كان بودي لو ان احد المتناظرين الفاضلين قد جلاها لنا على نحو اكثر وضوحاً واشرافاً قبل ان يتخذ الغائبة مناراً له . ويخيل الى ان الاستاذ رثيف خوري كان يتحدث عن هذا العنوان : ان يجب أن يكتب الادياب ؟

والواقع ان الادياب حر لا يعرف القيد ، وان الناقد الاديبي لا يسمه ان يفرض على الادياب التزام مذهب بعينه ، ايا كان هذا المذهب ، فالبيئة والتربية والثقافة والمزاج الشخصي وروح التفاؤل أو التشاؤم ، والانطوائية أو الانبساطية وغيرها من العوامل هي التي تعين خط السير للادياب فتجمله كلاسيكياً أو رومانسياً ، واقعياً أو رمزيا . ويلوح لي ان جوهر الخطأ في هذه القضية يبلور في الحائط بين المذاهب الاجتماعية وبين المذاهب الاديبية ، فقد يمتنع اديب ما مذهب الاشتراكية ولكنه لا يستطيع ان يكون اديباً اشتراكياً ، ذلك لان مزاجه الفني قد تجوهر في الشمر الغنائي مثلاً ... واذا ما حاول أن يقصر نفسه على ان ينتج ادبا واقعياً ادركه الفشل أو تمخض عن غناء ومور شوهاء لا غناء فيها ...

وأعرف اديباً شاعراً درس مذهبه الاجتماعي دراسة دقيقة شاملة وسجل آراءه في كتب ومقالات . وطالما تأقت نفسه الى ان يصور احساسه عن مذهب شراً . ولكنه ما أن ييم بذلك حتى يخامر احساس غريب واحد وهو أنه يتصور نفسه في مناهات مجهولة تقضي به الى شاطئ مجهول فينظم قصائده دائرة حول هذا المحور الغريب !!

وقد تكون اديباً واقعياً تؤمن ايماناً جازماً بالواقعية ، ولكنك مع ذلك لا تستطيع أن تنتج الا ادبا رومانسياً حزينا دائراً حول ذاته الحائرة الحزينة وذلك لان طاقتك الفنية قد تحددت في هذا الاطار !

ولست أدري أيها أجدى على الأديب : ان نترك الأدباء أحراراً ينتجون كما يريدون ويمهرون عن ذواتهم كما يشاهون ، أم أن نقرهم على التزام مذهب بعينه ونحبسهم في اطارنا الواقعي فينتجون أدبا مسيحياً فاتراً ! فأخشى ما يخشى على الاديب الواقعي هذه الدعوة القاسرة التي حشدت في زمرة الادياب الواقعيين كثيراً من أديباء الادب ...

ونحب ان نشير هنا الى مشكلة الحرية في الواقعية وسفور الآراء الاجتماعية والسياسية التي قد تحيل القصة الفنية الى مقال اجتماعي والقصيدة الحديثة الى خطبة منبرية لفقدان عنصري الفن والجمالية . لامراء في ان انجز وماركس - ومثلها لينين وستالين - كانا متعيزين في الفن وان جدارة الاثر الفني لديهم جيماً رهينة بما يبته الفنان من الدعاية لافكار معينة والدفاع عنها بجرارة وشجاعة ... وهذه الروح التحيزية تجافي قضية الحرية في الفن والأدب ، ويتناولها بالنقد والتفنيد كثير من الادياب والنقاد بما لا نود تفصيله في هذا المجال ... ولكن الادياب التقدميين يدافعون عنها ويشرحون مزاياها ، فقد كتب ايليا اهرنبورغ مقالا عنوانه « نعم ان أدبنا متعيز » جاء فيه : « انه من الطبيعي جداً ، ان يجب الكتاب اشياء ويكرهوا أشياء آخر واذا كانوا يتميزون عن معاصريهم ، فانما يتميزون بحساسية عواطفهم ، لا بالمواطف الخالية .

« إن «دانتى» قد عاش نفس حياة معاصريه ، فسام في نضالاتهم السياسية وخصها بكثير من اشعاره ، وهذه الروح التحيزية لم تخل ابداً بينه وبين أن يدع ، بل على العكس ساعدته على خلق هذه « الكوميديا الالهية » التي لا تزال تحرك احساساتنا ، على الرغم من ان أصداء أحداث القرن الثامن عشر السياسية قد سكنت منذ أمد بعيد . »

ونلاحظ أن التقدمية تدعو الى حرية الفنان . ولكن هذه الحرية ليست تجريدية وانما هي مقيدة بالواقعي الموسى ١

ومع هذه الواقعية والروح التحيزية فان انجز يفرق بين التحيز والنزوع ، ويرى ان آراء الكاتب كلما كانت مغلفة كانت أدعى لسمو الاثر الفني وتحقيق أصالته الفنية ...

وقد كتب بصفة خاصة عن النزوع الى الرواية الاشتراكية في نهاية القرن الماضي الى مرغريت هاركس قائلاً : « اني لأبعد ما يكون عن اتهامك بالخطأ لانك لم تكتفي قصة اشتراكية خالصة رواية ذات نزعة Tendeng raman كما نسميها نحن الالمان كي تمجد آراء الكاتب الاجتماعية والسياسية .

ليس هذا ما أعني ، اذ كلما كانت آراء الكاتب مقنعة كان ذلك أفضل

للاثر الفني ٢ كما وجه اللوم الى مينا كوتسكي لان الشخصية عندارنولد «أحد أبطال روايتها . ج . ن . « قد ذابت في المبدأ بصورة كلية ... وتأتي بعد هذا مشكلة الجمالية والتعبير .

وسارتر في كتابه « ما هو الأدب » يندد الادب الشعري والفني والميتافيزيقي ويدعو الى نشر يهدف الى عمل اخلاقي واجتماعي وسياسي بين البشر ، غايته بكل بساطة الاتصال بالآخرين ..

وهو مع هذا الالتزام لا ينكر الجمالية والفن وان كان يجلبها المحل الثاني : « فان الالفة الجمالية في النثر ليست صافية الا اذا جاءت

... البقية على الصفحة ٧٧ -

١ ماركس وانجز «الادب والفن» وعلاقة الفن بالواقع ص ١٦٠١
٢ في علم الجمال هنري لوفافر ص ٤٧ - ٤٨

لمن يكتب الأديب؟

تمة المنشور على الصفحة ٤٨

بالإضافة... ولنكتب أولاً بنية أن نقول شيئاً للأحياء ولا يضيرنا إلا يبقى لأحفادنا الذين لن يحسوا بقيمة الحوادث الراهنة إلا الإعجاب بأسلوبنا، ولكن لا يحسن بنا أن نتوخى الأسلوب لذاته، إن المسؤولية والصدق يأتيان أولاً، والأسلوب والجمالية في المجل الثاني»
وأنا أوجه هذا الكلام للذين يحسبون الواقعية ابتداءً في التعبير، وأحب أن ألفت النظر بصفة خاصة إلى قول سارتر «ولا يضيرنا إلا يبقى لأحفادنا إلا الإعجاب بأسلوبنا» فهو إذن مؤمن بروعة أسلوبه وخلوده وإن كان قد وضعه في المرتبة التالية للمسؤولية والصدق.

وقصارى القول إن الواقعية في الأدب العربي الحديث يتدهدها عاملان خطران هما:

١ - ملتزمون غير أدباء

٢ - وأدباء غير ملتزمين

فقد تطفل على مائدتها هذان الصنفان من الناس، فأما أولهما فقد آمن أيماناً راسخاً بالواقعية وظن أن حرارة هذا الإيمان تبيح له أن يدخل حرم الفن المقدس فحشيه دون أن تكون له الكفاية الأدبية والأدوات الفنية اللازمة لإجادة التصوير والتعبير فكان تتاجه سبباً في هبوط المستوى الفني للأدب الواقعي.

وأما ثانيها فآداب كانوا يعيشون في أبراجهم العاجية أو قضاوا حياتهم في الترف والتعميم والمجون، ولا يحسبون ببداً الالتزام عقيدة تسري في دماغهم، ومع ذلك أحبوا أن يكون لهم نصيب في هذا اللون الجديد فجاه أدبهم كألعاب البهلوان البارع ولكنه خال من الحرارة والصدق والإيمان!

يا دعاة الأدب للحياة - انقذوا الأدب من هذه الطقليات يستقم لكم بناء الأدب الجديد. وبعد، فما هو قصارى القول في هذا الموضوع؟

مجل الرأي أن الأديب يكتب للفرد كما يكتب للجماعة، ويكتب للأصدقاء كما يكتب للاعداء، وأن الأديب الواقعي لا يكتب للعامة ولا للخاصة وحدها وإنما يكتب لهم جميعاً وإن عبافرة الأدب كشكسبير يكتبون للناس جميعاً.

هذا هو رأي الناقد الأدبي على أساس الواقع النفسي للأدباء لا على أساس الاتجاه الفئائي. أما رأي الشخص الذي يعتقد مذهبا خاصا في الحياة فيتبلور في هذا الاحساس المركز الذي صوره الشاعر العظيم بقوله:

« إن لم احترق أنا، وإن لم تحترق أنت، وإن لم تحترق كلنا، فكيف يمكن لهذه الظلمات، أن تصبح ضياء؟ »

وعلى هذا فالأديب الواقعي - بوصفه انساناً يدين ببداً خاص في الحياة - لا بوصفه ناقداً أدبياً - جدير أن يدعو زملاءه الأدباء الواقعيين لأن يحملوا الرسالة ويؤدوا الامانة وإن يذبيوا مهجم على القرطاس ويصوروا احساس الجماهير ويوقظوا شعورهم ويرفعوا صوت الشعب الذي هو

١ «سارتر والوجودية» ترجمه سهيل ادريس ص ١٥٠، ١٥٣

صوت الله!

جدير به ان يؤنبهم وينقدم اذا ما تقاعسوا عن النضال، كما فعل سارتر اذ اعتبر فلوبير وغونكور مسئولين عن حركة القمع التي تبعت حكومة الكومون Commune لانها لم يكتبنا سطرراً للحيولة دونها.

جدير به بعد ذلك ان يضحى ويحترق وإن يهيب باخوانه وزملائه ان يضحوا ويحترقوا حتى تظل جذوة الكفاح متقدة ابداً مشتعلة دائماً، فشملة الحرية منذ كانت الحرية لا يضيئه الا دم الشهداء!

القاهرة عبد الله عبد الجبار

مفاهيم في الادب العربي الحديث

بقلم عبدالله يونس

عندما وقف الاستاذ رثيف خوري والدكتور طه حسين يتناظران، لم يكونا في الحقيقة مجرد الاستاذ رثيف والدكتور طه، ولكن كان يبرز من خلال ذلك - وإن لم يكن بصورة جلية قوية - صراع ايديولوجي يتناول المفاهيم الجذرية لأدب فترتين هامتين من حياة المجتمع العربي الحديث.

وتمتد اولى هاتين الفترتين منذ عصر الانحطاط حتى الحرب العالمية الثانية، بينما تمتد الثانية فيها بعد الحرب. وهاتان الفترتان كانتا في الحقيقة قصيرتين بالنسبة للعمل التطوري الحاسم، الذي يمتد على فترة طويلة يتم فيها عمله ببطء. ولكن المجتمع العربي نفسه لم يكن يتبع في سيره الخط الطبيعي للتطور...

لقد كان يتقلب بسرعة، خلال احداث ومشا كل تتكاثر ويولد بعضها بعضاً، كما كانت التأثيرات المختلفة التي خضع لها، تتغير باستمرار وتتفاعل بسرعة، نتيجة للاضطرابات التي كان ولا يزال يخضع لها، من سياسية واقتصادية واجتماعية.

ومنذ بداية القرن العشرين، كان الجميع يشعرون بان الانسان العربي على باب حياة جديدة، تختلف كل الاختلاف عن تلك التي عاشها خلال القرون الاربعه الماضية.

وكان على الادب في ذلك الوقت ان يقوم بمهمته خلال هذه الفترة؛ تلك المهمة التي ألهه إياها طبيعة الواقع في تلك الفترة من جهة، وماهية الصفة التي اكتسبها الادب نتيجة فترة الانحطاط من جهة اخرى. ولذلك انحصرت مهمة الادباء عند ذلك في رفع الادب كاهية ادبية، وتركيز قيمة الثقافة كثقافة، لأن طبيعة المفهوم الحي الذي كان يسيطر على المجتمع، ويعطي الادب صفته المميزة، لم تكن لتسمح لهذا الادب ان يقوم بدور ايجابي فعال.

والانسان العربي نفسه في تلك الفترة، كان همه الاول هو الارتفاع الى نقطة يتركز فيها، ليبدأ حياته من جديد.

فهمة الانسان والادب في تلك الفترة، هي الوصول الى وضع ملائم للانطلاق النضالي الحقيقي. اذن فالايديولوجية التي كانت تسيطر في تلك الفترة هي ايديولوجية سلبية بحتة.

أما في تلك الفترة الثانية؛ فكان ان اخذ - في مطلعها - الانسان العربي يتلمس نفسه، ويزداد شعوره بكيانه، وذلك كان نتيجة تلك

الفترة من النضال السلي التي عاشها . وبدأ يحس - وإن لم يكن قد بلغ تماماً تلك النقطة التي يمتددا في انطلاقة - بأنه قريب جداً من هذه النقطة .

ومن هنا بدأت فترة جديدة من النضال ، ولكنها كانت تتميز عن الفترة الاولى بانها تحمل بذوراً ايجابية في داخلها . وبدأ الانسان العربي يبحث عن قيم جديدة . وكان الادب يواكب كل ذلك وكان ان دخل مرحلة اكثر ايجابية من قبل . ويتحول - كالانسان العربي - من فترة البحث عن نقطة ارتكاز ، الى فترة البحث عن قيم جديدة . وكان يخضع خلال ذلك لتطورية الواقع ، وللتأثيرات الخارجية من غربية وسواها ، وذلك نتيجة الاتصال مع الصعيد الخارجي .

ولكن الادب في هذه المرحلة الاخيرة التي يمشيها اليوم ، كان عليه ان يواجه الى جانب مواكبة النضال والبحث عن مفاهيم جديدة ملائمة لهذا النضال ، كان عليه ان يناضل ايضاً للتخلص من بقايا تلك الفترة الاولى ، التي اخذ منها ما يعينه على السير ، وكان عليه ان يلفظ بعض هذه البقايا لينطلق ... وهكذا كان الصراع !

وكان ما يسمونه معركة القديم والحديث !

وهكذا ، فان الدكتور طه حسين كان يمثل في مناظرته تلك الفئسة الاولى التي ادت دورها في عملية التطوير الادبية ، ولكنها ظلت تفرض نفسها على عملية التطوير هذه ، ممتدة في ذلك على ماضيها الكفاحي في تلك الفترة الماضية .

ومن اجل هذا كان لا بد من انعدام اصالة الوضع التطوري ، ازاء حالة الفرض هذه ، على عملية الادب الجديدة . ولهذا كنا نرى مناظرة الدكتور طه حسين تقف بجملها على نقطتين : اولاهما هي عدم الاعراف - ضمناً - بالوضع التطوري في العملية الادبية ، والثانية هي كلامه عن الادب بصورة عامة لا تتقيد بصر ما او بانسان ما ! بينما نحن اليوم في اشد الحاجة للربط بين الادب وبين الانسان العربي الحالي الذي يبرز من خلال فترة ذات مقومات جديدة .. ومن هنا ينشأ التعقيد والترابط الحيوي بين الانسان والادب .

فطه حسين - كما يقول في مناظرته - لم يكن يفهم في كل ما كتب - عامة او خاصة ، وانما فهم ادبياً يكتب وقراء يقرؤون فيرضون اويخطون . ولتقف قليلاً عند هذه النقطة ، فهي تفسر لنا اشياء هامة .

ان الدكتور - كما يقول - لم يفهم عامة او خاصة ! ولكن مجرد فهم الفهم لا يباي الوضع الحقيقي للادب في تلك الفترة ، وهو انه كان يدور في حلقة من الخاصة الثقافية التي كانت تنفرد به . ثم ان كل ما كان ينتج عن الادب هو مجرد اثاره الرضى او السخط ! وفي هذا مصداق لتلك الفترة السلبية التي كان يعيشها الادب . والا فلننظر .. من من الادباء اليوم يكتب مجرد اثاره الرضى او السخط !!

لقد اتصل تأثير الادب في هذه الفترة الثانية ، بما ملهام هو عامل التفاعل الحيوي النفساني ، والدفع نحو شيء معين . وهذه كانت اهم بذور الايجابية في تلك الفترة الثانية التي نعيشها اليوم .

ثم يتساءل الدكتور عن تلك النظريات الجديدة التي تسيطر على الادب ، والتي لا يابها لها ، لان الادب قد وجد قبل ان توجد هذه النظريات ، ولأن الادباء انفسهم منذ القديم ، لم يفكروا عند انشاء الادب بعامة او خاصة ، او بتوجيه ما او انعدامه ! وبعد ذلك يتساءل .. ما الذي طرأ على الحياة الانسانية وعلى الحياة العقلية بصفة خاصة !?

عجاً ، هل يكفي ان نصدف عن هذه النظريات لمجرد ان الادباء من قبل لم يفكروا فيها او يعرفوها ! اننا اذن نشل النشاط الانساني باعدامنا العملية الحية فيه ... عملية التطوير ، انسانياً او عقلياً .

اذن ليس في الامر ما يدعو الى التساؤل عما طرأ على الحياة الانسانية والعقلية ! لقد تطورنا تبعاً لفهم الطبعي للتطور ، في بيئة معينة ، وخلال ظروف وتأثيرات معينة ايضاً . ولكن هل حقاً كما يقول الدكتور بأن السياسة هي من اوجدت هذه النظريات ، وذلك لتكون سبباً للتسلط على الناس !?

لا يا سيدي الدكتور ، ان النظرة هنا يجب ان تنسجم بعمق اكثر لتستطيع الوصول الى الحقيقة ، التي تأخذنا دوراً هاماً جداً لانها تمثل جزءاً هاماً من انطلاقتنا الحديثة .

المشكلة كل المشكلة هي ان الانسان العربي الحديث ، بعالمه الحالي وظروفه وتأثيرات بيئته لا يمكنه ان يعيش اعتباراً ، بل لا بد له من موقف معين يحدد يقفه من مشاكل عالمه ليسرع بذلك التطورية الجديدة لهذا العالم . فكيف اذن بالانسان - الادب ؟

ايمكن بعد ذلك اذا اصر الادب العربي اليوم على اتخاذ موقف معين من مشاكل عصره ، ان تنهه بان هذا الموقف قد املته عليه السياسة لمجرد التسلط على الناس ؟

ان كل ادب اليوم لا يمكنه الا ان يكون ادب قضية ، لان الانسان يا سيدي قد اصبح هنا انسان قضية ايضاً .. قضية كبرى تمتد عميقة بعيدة لتحيط بالجذور الحية لعالمه الجديد هذا

اذا كان ما يقوله الدكتور حقاً ، فان جميع ادباء بلادنا اليوم مجرد اجراء ... مجرد ابواق ... تصوروا ... الادباء الذين يلتهبون في حمأة الصراع اليوم مجرد اجراء !!

اجل لقد كان للسياسة نصيب هام في صنع هذه النظريات ، ولكن ليست السياسة كعمل تسلطي للتغريب بالجاهير - كما يراها الدكتور - ولكن السياسة كوضع راهن له آثاره ونتائجه في هذه القمة من العالم . وعلى هذا الاساس ، نرى ان هذه النظريات قد نتجت عن كل ما يعمل كأثر قوي في ظروف عالمنا العربي من سياسة واقتصاد وحياة اجتماعية ... وغيرها . اذن فادباء القضايا والنظريات - تلك التي لا يابها لها الدكتور - هم ابنا واقعهم ، وهم من يتجلى فيهم هذا الواقع ، لانهم يعيشونه بكل ما فيه من الم وقوة ، ولهب وثورة !

ولكن الدكتور طه حسين يتمشق الحرية (اذن فأذنوا لي ان اكون حراً !) ولكن اية حرية هذه ؟

انه يريد حرية هروبية ، حرية ينمزل بها عن مجموعة النظريات والقضايا التي تشكل عالمنا اليوم ، ليهرب الى تلك الفترة الاولى التي لا يمكنه الا ان يعيش فيها .. حيث كانت الحياة .. وكان الادب .. مجرد اعتبار ! يقول الدكتور طه حسين (دعوا هذا العصر الحديث الذي نعيش فيه الآن ، ودعوا كل الظروف التي تحيط به وتؤثر في الادباء وادبهم آثاراً مختلفة ، وانتقلوا بنا الى عصر بعيد كل البعد عن هذه الظروف التي نحن فيها الآن ، واختاروا اي ادب شئتم من ادباء العصور القديمة ، ولتختار مثلاً ادباء التراجيديا عند اليونان : من الذي كان يوجه هؤلاء الادباء ؟) .

ان مجرد المقارنة بين فترتنا هذه وبين فترة اخرى موازية تاريخياً لاستنباط القوانين خطأ واضح ، وذلك لاختلاف الظروف والعوامل المؤثرة في كلا الحالتين ، فكيف اذن يجوز ذلك بين فترتين متباينتين تاريخياً .

عدا عن عوامل كثيرة اخرى .

ان الخطوة الاولى لفهم مشكلاتنا الحالية هو ان نعيش هذه المشكلات . اذن فالمشكلة هنا هي اننا لا نستطيع ان نبتعد عن هذا العصر ! وان نلني عند المقارنة بكل الظروف والعوامل التي تكتنفه .. اي شيء يبقى اذن ! ان هذه الظروف والعوامل هي ما يميز انسانيتنا كوضع حيوي اليوم . ان منطقي التجريدي ذاته خطأ ، لان ما نكافح من اجله انما هو جل تلك المشكلات التي تنتجها هذه الظروف وتسببها .

ولنواجه الآن ادباء التراجيديا ، ولكن على الا نصحب عالمنا كوضع هي متميز خلال فترة زمنية متميزة ، ولكن نصحبه كصفة حياتية فقط . ولننظر بعدها الى سوفوكل مثلاً .

هل حقاً لم يكن سوفوكل موحياً عندما انشأ (انتيفونا) ؟ انه كما يقول الدكتور : (وجد امامه اسطورة قديمة راثمة تأثر بها اليونان حتى تناقلتها اجيالهم ، ورأى ان النظام في اثينا ، النظام الديني والنظام السياسي يقضي بأن يحتفل في كل عام باله من آلهتهم ...) اذن لقد وجد سوفوكل اسطورة ، ولقد تأثر اليونان بهذه الاسطورة ، والنظام الديني والسياسي يقضي بان يحتفل في كل عام باله من آلهتهم . فاذا انشأ سوفوكل (انتيفونا) بعد ذلك فانما يفعل هنا تبعاً لذلك التأثر والقضاء اللذين يشكلان جزءاً هاماً من الحياة اليونانية .

اذن فسوفوكل كان موحياً من قبل ناحية من نواحي الحياة اليونانية . ولكن هذا التوجيه لم يكن متميزاً تماماً وواضحاً كما في عصرنا اليوم ، وذلك لاختلاف طبيعة الحياة الاجتماعية ، وبالتالي يمكننا ان نعتبر هذا التوجيه حادثة ضمنية نفسانية اكثر منها حادثة اجتماعية !

ولندع ذلك الى ادباء اليرب القدامى . ان الدكتور طه حسين يقلص مشكلاتهم في : هل كان الشعراء المادحون هم المغفلون ، ام كان اصحاب السلطة الممدوحون اقرب الى الغفل !! ان صح ان تكون المشكلة هي التغفل - وهذا خطأ - فكل الشعراء واصحاب السلطة لم يكونوا مغفلين ، فالشاعر كان يدح ليجاز ، والحليفة كان يريد هذا المديح كبوق دعابة . ولكن كل هذا على حساب من ؟ على حساب الشعب ، انه وحده هنا من خسر القضية ! وهؤلاء الشعراء ، هل حقاً كما يقول الدكتور بأنهم كانوا يفكرون في قرائهم وسامعهم قبل تفكيرهم في الخلفاء والساسة ؟ لنفرض صحة ذلك ، ولكن على اي اساس كان يفكر الشاعر بقرائه وسامعيه ؟ انه يفكر في مقدار ما يمكنه ان يناله من رضاء وتقدير ، اي انه يفكر فيهم لياخذ منهم ، بينما نرى ادبيتنا اليوم انما يفكر في القراء لمعطهم ، ليقدم لهم شيئاً يراه نافعاً في توجيه حياتهم ، ومن هنا تنبع ايجابية الادب الجديد . ويقول الدكتور بأن ليس هناك من عامة ولا خاصة يكتب لها الادب ، انما هناك اديب يكتب وقراء يقرأون . ولننظر الى هذا الرأي على ضوء الآداب القديمة والمعاصرة ، فمثلاً في ادبنا العربي القديم لا يمكن لاحد ان ينكر وجود عامة جاهلية كانت معزولة عزلاً تاماً عن الثقافة ، بينما كانت هناك خاصة من المثقفين والاثرياء واصحاب السلطة ، كانت دائرة الثقافة تحيط بهم وتتعلق عليهم .

واما في ادبنا الحديث ، فليس هناك في الحقيقة كافة او خاصة بالمعنى الصحيح الذي يجعل من كل فئة شخصية محددة متميزة ، وذلك لان التطور الحديث لحياتنا المعاصرة ، قد فرض قضايا مجموع الشعب على المجتمع بحيث اصبحت القضايا المشتركة للجميع والتي تطبع المجتمع بطابعها . وعلى هذا الصعيد المشترك يلتقي الاديب بقرائه .

اذن فالاديب المعاصر لا يكتب لعامة او لخاصة ، ليس لانه لم يوجد

هناك قط عامة او خاصة ، ولكن لان الحياة قد حلت ذلك تلقائياً ، واصبح الاديبي اليوم يلتفت ليجد نفسه وسط خضم جماعي لا يمكنه حباله - تبعاً لطبيعته - ان يقف مكتوف الايدي ! فاذا عليه ان يعمل في هذه الحالة ما دام ليس هناك من كافة او خاصة ؟ ان دور الاديبي المعاصر يجدده ابرع تحديد الاستاذ رثيف خوري - الذي كان يمثل ايدولوجيتنا الجديدة - بقوله : « ان دور الاديبي يتجلى في تمييزه في ما يصف ويصور ، ظواهر الحياة التي تنمو من ظواهرها التي تبدل وتضمحل ، لا يقصد من وراء ذلك الى لذة او ترفيه ، او عزاء وانتشاء ، أو مباهاة ببيان ، انما يقصد ان يدخل في وعي الجماهير اي هي الظواهر النامية في الحياة حولهم واي هي الظواهر الصائرة الى ذبول واضمحلال ، بغية ان يوجههم الى تغيير الحياة التغيير الذي تحتمله ، والذي يكون في الآن نفسه جالاً وخيراً لأن الخلق الفني الصحيح انسجام بين الخيال والممكن ، وبين الفني الجميل ، والاخلاقي الخبير . »

وعلى هذا الاساس نرى ان المشكلة ليست كما يقول الأستاذ احمد كمال ذكي : (ماذا ولماذا يكتب الاديبي) لا .. ان هذه المشكلة تتحل تبعاً للمشكلة الأولى (لمن يكتب الاديبي ؟) ، وذلك لأن (لمن يكتب الاديبي ؟) تحدد حتماً نوعية هذا الادب الذي يكتبه ودواعي ذلك ، اي انها تحدد ماذا ولماذا يكتب الاديبي .

فمثلاً عندما يكتب الاديبي لمجموع شعبه الذي لا يزال يزرع تحت قيود الاستعمار ، ماذا يمكنه ان يكتب إلا ان يكون منبعثاً من آلام ذلك الشعب وآماله وحياته ، وهكذا تحدد وجهة الاديبي صفة أدبه .

وهناك مشكلة اخرى لا يزال البعض ينظر اليها نظرة خاطئة ، ويجعلون منها شيئين متقابلين : فاما ان يكتب الاديبي بمستوى ابداعى رفيع ، وعندها لن يكتب للشعب لان هذا لن يفهمه ، واما ان يكتب للشعب فعليه ان يتنازل - نوعاً ما - عن هذا المستوى !

لنهم يجعلوننا امام احد امرين : اما ان نخسر الادب ، او نخسر الانسان ! ولو كان الأمر كذلك - وهذا محال - لفضلت ان نضحى بالادب لتربح الانسان ، هذا الذي نكافح من اجله !

ولكن يجب ان ينظر الى المشكلة هنا نظرة توافقية وايست تقابلية مطلقاً ، اي ان واجب الاديبي الحق أن يعمل ليحفظ مستوى ابداعه ، وليجعل الشعب يفهمه ، وهذا عمل شاق ولا شك .. ولكن من هنا تنبع مسؤولية الاديبي الكبرى وأهمية دوره في الحياة المعاصرة .

وهناك ايضاً رأي طالما رددته الكثيرون معتقدين أنهم قد حلوا المشكلة وهو ان واجب الاديبي الحق أن يرفع هذا الشعب الى مستواه وليس أن ينزل هو الى مستواهم .. ولكن بمد هذا كيف يكون ذلك الرفع ؟ ..

أبدأ لا جواب ، مجرد ان يدفهم ! الحقيقة ، ان امام الاديبي اليوم دوراً يقف على الصعيد الاول في حياتنا ، وانما يستطيع اليوم ان يرفع هذا الشعب عن طريق تجارب تربوية دقيقة واعية تنبع عن مجموعة مشاكل الشعب كصدر أول لها . وعندها .. صدقوني .. إنكم ستدهشون لقدرة هذا الشعب على الفهم وعلى الاستبصار ... ولكن بشرط أن يتنازل الاديبي شيئاً ما عن ارتفاعه الشاق حيث ينمقد الضباب والبخور غيوماً كثيفة طالما يحها الشعب لكثرة ما أحسها دوارآفي رأسه وقلبه - ولأن الإنسان في النهاية لا يمكنه ان يتنازل عن ارضه وشارعه وبيته .. هذه الأشياء التي يتجلى من خلالها مفهومه الانساني .

عبدالله يونس

طرطوس